

أزمة الانتماء في المجتمعات الإسلامية التركان في سورية مثلاً

د. فواز منير الرجولة

(مركز الوثائق التاريخية بدمشق، سوريا)

Depuis la fin de la première guerre mondiale, une crise est vécue entre les musulmans et les sociétés dans lesquelles ils se sont retrouvés. Des mouvements de rassemblement sur des bases de plus en plus réduites sont apparus et nourris par leurs ennemis. Cet article expose et illustre ce problème, d'une grande actualité, et propose des ébauches de solution prenant la société Syrienne comme exemple.

إن أزمة الانتماء في المجتمعات الإسلامية ظاهرة عامة بينها، ظهرت بشكل ملح بعد الحرب العالمية الأولى وما تبعها من تواجد الفرد في كيانات جيوسياسية ضيقة، أطلق عليها اسم الدولة الحديثة، ففقد انتماءه الكبير الذي عاش عليه أربعة عشر قرناً لتتجاذبه دعوات لانتماءات ضيقة لم يتوانى أعداء الأمة عن تذكيته بكل وسيلة وبمتابعة مستمرة، والأخطر من ذلك سلوك بعضها سبيل العنف فأدخلت الكثير من مجتمعاتنا في فتن من التدمير الذاتي. فما السبيل إلى الخروج من التاريخ وفهم الواقع المعاصر والمصالحة بين الفرد ومجتمعه؟

إن النص التالي يبين عمق الأزمة التي يكاد كل فرد في مجتمعاتنا يعاني منها بصورة أو بآخرى:

«كنت أبحث في القوقل⁽¹⁾ عن معلومات عن عائلة الميداني وعوائل حي الميدان الدمشقي العريق، وسبب هذا البحث هو: إنني من أهل الحجاز، ولكن حسب المعلومات التي وصلتني من جدّي رحمة الله عليه ومن والدي حفظه الله، إن لنا أصولاً شامية».

بهذه العبارة استهل «أبو حسن» سؤاله على متدى الأنساب والعائلات الشامية.

وتابع قائلاً: «جلّ شباب العائلة لا يعرفون عن العائلة غير إنّها: عائلة حجازية معاصرة سكنت المدينة المنورة ومكة المكرمة، والآن معظمها في مدينة جدة».

«ولكنني بحكم: حبي للتاريخ بشكل عام، وبعدما وقع نظري على مشجرة لآل القاسمي الكرام في بيت عمتي عام 1414 هـ/ 1993 م، سألت والدّة عمتي وهي من آل القاسمي انتقلت إلى رحمة الله قبل عدة سنوات، عن المشجرة، «قالت: «هذا نسب آل القاسمي وهي عائلة هاشمية حسنية شامية من أصول عراقية، وإنّ المذكور في أصهار العائلة باسم عمر الصغير الميداني هو جدّ جدّي، وقد تزوج مرتّان من بنات السيد قاسم القاسمي الكيلاني، حيث رزق من الثانية بوالد جدّي، رحم الله الجميع، وهو الذي هاجر إلى الحجاز في أوائل القرن العشرين الميلادي مكوناً عائلتنا في الحجاز».

«وزادت رحمة الله عليها: «بأنه يفترض أن لا يزوج السيد قاسم، ومرّتين، إلا لمن له مثل نسب آل القاسمي».

(1) القوقل أو الغوغل GOOGLE: محرك البحث الشهير على الشبكة الالكترونية على الحاسوب.

«عندما سألت جدّي رحمه الله عن الأمر قال لي: «إنّ الأكيد هو إنّ جدّه هو عمر الصغير الميداني، ولكن موضوع النسب هاشمي أو غير هاشمي ليس بأكيد».

«وقال لي: «لا يجوز الانتساب إلا باليقين، ولا مكان للظن في مثل هذه المواضع».

«الآن كل ما عندي من معلومات هو: اسم عمر الصغير الميداني الموجود في مشجرة آل القاسمي، وصورة من شهادة ميلاد والد جدّي، رحم الله الجميع، وهي شهادة عثمانية إنّ:

«اسمه: محمد توفيق (مركب)

«ووالده بالنص: المرحوم شيخ عمر تركماني

«ووالدته بالنص: عائشة بنت قاسم

«وسنة الولادة: 1296 هـ / 1879 م

«ب: دمشق الشام

«وعندي مراسلة بين جدي والسيد أحمد محمد القاسمي، عام 1407 هـ / 1987 م، يتحدث فيها القاسمي عن: نشأة آل القاسمي في بلاد الشام، ومن ثم أصهارهم، ومنهم جدّ جدّي الذي سماه بـ «الشيخ عمر من آل الصغير في الميدان».

«الآن الأكيد: إنّ أصل العائلة من الميدان، ووالد جدّي الذي هاجر وكون العائلة في الحجاز، كان يعرف في المدينة المنورة بـ: «الشيخ توفيق عمر»، بينما والده عمر كان يعرف عند آل القاسمي في دمشق بـ: «عمر من آل الصغير الميداني»، وشهادة ميلاد جدّي توفيق، والد جدّي، رحم الله الجميع، تقول: «عمر التركماني»!؟

«الرجاء من الجميع وأهل الميدان خاصة المساعدة: إذا كان يمكن لأهل الحي الحصول على معلومات عن العائلة بالمعلومات المتوفرة المذكورة أعلاه، وعندى بعض المعلومات عن أقارب جدّ جدّي في مشجرة يدوية غير رسمية كان اسمه فيها: «عمر الصغير بن محمد بن صالح التركماني الميداني».

«هل المعلومات متضاربة؟ أم إنّهُ يمكن الجمع بينها: الصغير الميداني- التركماني، التركماني-الميداني؟

«أعتقد: إنّ الجواب عند أهل العلم بالأنساب من أهل الميدان، وأهل العلم بعوائل الميدان في القرن التاسع عشر الميلادي، والحياة الاجتماعية في ذلك الحي العريق»⁽¹⁾.

يشير أبو حسن في هذا النص تساؤلات كثيرة، أهمها: ما هو منشأ أسماء العائلات الشامية؟ ما هي أصول أهل الميدان الدمشقي، ولماذا نسب بعضهم إلى الحيّ، وآخرون إلى الأصل العرقي، وغيرهم إلى الجّد الجامع في دمشق، أو إلى المكان الذي أتى منه، أو إلى مهنته، أو إلى صفة عُرف بها، كما إنّ منهم من يحملون شهرة تشير إلى انتمائهم لآل البيت، وغير ذلك؟ وكيف كوّن هؤلاء، كغيرهم من مواطنيهم السوريين، مجتمعاً واحداً متماسكاً متكافلاً متضامناً؟ هذا ما سنتناوله في هذا البحث معتمدين بشكل أساسي على وثائق سجلات محاكم دمشق الشرعية العثمانية.

(1) شمعة، سامي: منتدى الأنساب والعائلات الشامية، ركن البحث عن الأصول والأنساب، موجود بتاريخ 29/10/2009، على الرابط التالي:
<http://www.alchamaa.com/ansab/index.php>

أولاً - أسماء العائلات الشامية

انطلاقاً من النص السابق، نأخذ آل الصغير مثلاً لبنين منشأ وتنوع أسماء العائلات الشامية التي يعبر عنها أهل الشام بعبارات: اللقب، أو الشهرة، أو الكنية.

إنّ تعدد الألقاب في هذه النص التي أطلقت على نفس الشخص خير مثال على أصول تسميات العائلات الشامية وسبب ما نراه في سجلات النفوس العثمانية عند إنشائها، وأقدمها في دوائر نفوس دمشق ثلاثة: الأول يعود لعام 1270هـ/ 1854م، والثاني لعام 1300هـ/ 1883م، والثالث لعام 1330هـ/ 1912م، من إطلاق لقبين مختلفين على أخين شقيقين فأصبحت سلالة كل منهما تحمل اسم عائلة مغاير للأخرى.

فنرى هنا أسماء لعائلات دمشقية مثل الصغير نسبة لصفة اشتهر بها الجدّ الجامع للعائلة، والميداني نسبة للحيّ الموجودة فيه العائلة، والتركمان نسبة لأصل العائلة العرقي. ويلاحظ إنّ نفس العائلة عندما انتقل أحد أبنائها، وهو الشيخ توفيق عمر، أصبحت تحمل لقب «عمر» في المدينة المنورة نسبة لوالد الشيخ توفيق الجدّ الجامع هناك.

كما حملت عائلة القاسمي في الشام اسم جدّها الجامع فيها الشيخ قاسم الحلاق الذي كان ينسب إلى مهنته، ونلاحظ هنا لقب الكيلاني وهو الاسم الذي حملته العائلة في الشام عند قدوم جدّهم من العراق، نسبة لبلدة كيلان في العراق التي ولد ونشأ فيها جدّهم الأعلى القطب الصوفي الشهير الشيخ عبد القادر الكيلاني، ومن هذه العائلة تفرعت عائلات شامية شريفة حسنية شهيرة منهم آل القاسمي نسبة لجدّهم كما أسلفنا وأبناء عمّهم آل الخطيب الحسنيين الذين كانوا بوظيفة جدّهم الجامع الذي تولى الخطابة في الجامع الأموي بدمشق وتوارثها أولاده من بعده لعدة أجيال بل وحتى يومنا هذا.

كما نلاحظ عدة ألقاب حملها أصحاب النسب الشريف أصبحت أسماء لعائلات شامية كـ الحسني، والهاشمي.

أما عن لقب التركماني، فنقول: إنه قد سكن مجموعة من التركمان قديماً المنطقة المعروفة اليوم بـ «الحقلة» في حي الميدان، وهو حي دمشق الجنوبي خارج السور، وذلك قبل أن يصبح الميدان حياً. وقد تشكل الحي بعد ذلك باتصال هذه المنطقة مع المناطق الأخرى التي كانت نويات الحي الحالي. وتشير قباهم المعروفة «بقباب التركمان» إلى وجودهم فيه في سنة 545هـ / 1150م.

وقد دعا محمد بن كنان الصالح، المتوفى سنة 1153هـ / 1740م، هؤلاء «التركمان» بالـ «الحقليجية» نسبة إلى منطقة الحقلة المذكورة. وذلك في كتابه «الحوادث اليومية من تاريخ أحد عشر وألف ومئة».

وفي الميدان اليوم زقاق يدعى «زقاق التركمان».

وقد انحدر منهم الكثير من العائلات المعاصرة الشامية العريقة الميدانية الأصل منهم من بقي في الحي المذكور ومنهم من سكن في أحياء دمشق الأخرى. ونذكر منهم على سبيل المثال البطل السوري الوطني المعروف يوسف العظمة شهيد معركة ميسلون الشهيرة كما سبق.

يتضح من هذه اللمحة التاريخية إنه لا يوجد أية غرابة بوصف نفس الشخص، كالشيخ عمر في النص أعلاه، بالميداني نسبة إلى حيّه، وبالتركماني نسبة إلى أصله.

أما «الصغير» فهي صفة اشتهر بها الجدّ الجامع فأصبح اسم العائلة، وهي عائلة دمشقية عريقة معروفة ومنتشرة اليوم في دمشق وبلاد الشام والعراق. وإن كثيراً من العائلات الدمشقية تحمل اسم الصفة التي اشتهر بها الجدّ الجامع، نذكر

منها على سبيل المثال: الأشقر، والتخين، والطويل، والعوّاء، والعيطة، والقصير، وغيرها.

وما يزال آل الصغير إلى اليوم موجودين في دورهم في حيّ الحقلّة بالميدان لاسيما في ساحة السخانة أو ساحة عصفور، ومنهم شخصيات بارزة من وجهاء الحيّ، فإمام أحد أكبر المساجد في الميدان اليوم من آل الصغير.

ومن مظاهر اندماج أهل اشام في بوتقة واحدة على تنوع أصولهم، شهرة بعض الدمشقيين بأسماء عائلات أزواج أمهاتهم، ومن أسباب ذلك اقتران الأم بزواج آخر بعد وفاة زوجها الأول وانتقالها للعيش في بيت زوجها الجديد مع أولادها.

كما اشتهر آخرون باسم مهنتهم، بغض النظر عن أصولهم العرقية ومعتقداتهم، وهو شائع عند أهل الشام.

ومن مظاهر اللحمة الاجتماعية، الشركات في التجارة والصفقات المالية والعقارية التي كانت قائمة بين الشاميين دون أي اعتبار لأصولهم.

وينطبق ذلك على آل الصغير، فقد ورد في سجلات محاكم دمشق الشرعية العثمانية مجموعة من الوثائق العثمانية مؤرخة بين عامي 1219-1311هـ/ 1804-1893م، تبين السياق الذي اشتهر به أحد الدمشقيين وهو «عبد الغني»، وهو من عائلة ذات أصل عربيّ، بكنية زوج أمّه من «آل الصغير» ذات الأصل التركماني، وإنّ هذه الشهرة لم تنتقل إلى سلالته، كما هو الأمر في حالات مشابهة أخرى، حيث إنّ ابنه «محمود» بعد ذلك بقي يحمل اسم عائلته الأساسي.

وكذلك الأمر نلاحظ من نفس هذه الوثائق كيف اشتهر دمشقي آخر وهو «علي» باسم مهنته «العكّام» وهي شهرة لم تلازمه لاحقاً، كغيره من الدمشقيين

الذي ظلوا يحملون أسماء مهن جدّهم الجامع كاسم عائلة إلى اليوم، حيث أثبت ذلك عند تدوين سجلات النفوس العثمانية، فقد عاد «علي» بعد ذلك إلى اسم عائلته الأساسي وهو «الصغير».

وهذا ملخص لبعض هذه الوثائق، المحفوظة في سجلات محاكم دمشق الشرعية العثمانية حسب تسلسلها الزمني:

ففي عام 1219هـ/ 1804م، «الحرمة فاطمة بنت السيد أسعد الصغير توكل زوجها لبيع دار بمحلة العقبية الكبرى تجاه جامع التوبة. السيد عبد القادر بن الشيخ محمد... شاهد».⁽¹⁾

وفي نفس العام، «الحرمة زينب بنت أسعد بن عبد القادر الصغير والحرمة نسلي بنت الحاج أحمد عصيدة باعاً داراً ظاهر دمشق بمحلة القنوات بالقرب من القنطرة. الشيخ عبد القادر والشيخ عبد الغني ولدا الشيخ محمد...، معرفان وشاهدان».⁽²⁾

وفي عام 1230هـ/ 1815م، «الأخوان السيد عبد الغني والسيد عبد القادر ولدا الشيخ محمد...، شاهدان. عمر آغا بن السيد أسعد الصغير يبيع بالوكالة عن شقيقته زينب دكان في العقبية معدة للبقساوية موروثة عن والدها».⁽³⁾

أما في عام 1249هـ/ 1833م فقد «نُصّب السيد عبد الغني بن الشيخ محمد.. الشهير بالصغير»⁽⁴⁾ وصياً مختاراً على تنفيذ وصية المرحوم السيد صالح

(1) سجلات محاكم دمشق الشرعية العثمانية: سجل 253، وثيقة 358، لعام 1219/ 1804.

(2) مرجع سابق: سجل 253، وثيقة 428، لعام 1219/ 1804.

(3) مرجع سابق: سجل 277، وثيقة 163، لعام 1230/ 1815.

(4) عبد الغني بن محمد.. الشهير بالصغير نسبة إلى والدته الحرمة زينب بنت أسعد بن عبد القادر الصغير. للمزيد انظر رجولة، فواز منير: في ربوع دمشق، دار عبادة، دمشق، 2009، ص 53.

بن السيد أحمد الوزان الذي أوصى بثلاث ماله. محمود بن عبد القادر..،
شاهد»⁽¹⁾.

ثم في العام التالي 1250 هـ / 1834 م، «السيد محمود بن السيد عبد القادر..
بالأصالة عن نفسه وبالوكالة عن السيد عبد الرزاق بن السيد أحمد الصغير،
استأجر مناصفة بينه وبين الموكل 24 / 16 قيراط من قرية الطيرة وقرية دير
القاضي الكائنة بناحية حوران. القريتان المذكورتان جارتان في وقف أحمد آغا
بن حسين بك البزبازي»⁽²⁾.

وبعد ذلك بثلاث سنوات عام 1253 هـ / 1837 م، «السيد عبد الغني بن
الشيخ محمد.. بالوصاية على أخويه لأمه القاصرين محمد ومحمد رشيد ولدي
السيد صالح الوزان. والحرمة زينب بنت السيد أسعد الصغير وكيلها ابن ابنها
السيد أحمد بن عبد الفتاح الوزان. باعوا وكالة ووصاية البستان الكائن في
الشاغور. السيد محمود بن عبد القادر..، شاهد»⁽³⁾.

وفي وثيقة تعود لعام 1262 هـ / 1846 م ترتبط بشكل غير مباشر بالعائلة
المذكورة، تبين قيام الشركات والأعمال المالية والتجارية والعقارية بين
شخصيات دون أي اعتبار لأصولهم، ففيها نجد، كما في الوثيقة السابقة، أحد
الشركاء عربي والثاني تركماني وصاحب العقار موضوع الصفقة كردي، وهذا
ملخص الوثيقة: «استأجر حمزة بك بن إبراهيم بك عظمة زادة والسيد سعيد بن
السيد قاسم.. بينهما مناصفة ثلث القرية الكائنة في ناحية الجيدور، المعرفة بقرية
بواريت الشمالية والجارية في وقف الأمير محمد مشد الثلج»⁽⁴⁾.

(1) سجلات محاكم دمشق الشرعية العثمانية: سجل 327، وثيقة 614، لعام 1249 / 1833.

(2) مرجع سابق: سجل 337، وثيقة 101، لعام 1250 / 1834.

(3) مرجع سابق: سجل 349، وثيقة 369، لعام 1253 / 1837.

(4) مرجع سابق: سجل 397، وثيقة 149، لعام 1262 هـ / 1846 م.

مضى بعد ذلك عدة سنوات توفي خلالها الشيخ عبد الغني فنجد عام 1270 هـ / 1854 م، «المؤرث المرحوم الشيخ عبد الغني بن الشيخ محمد...، أخته لأمه الحرمة خنزاده بنت المرحوم السيد أحمد الوزان ورثت منه قيراط وتسع قيراط وثلاث تسع قيراط من الدكان مع عدتها بالقباقيبة العتيقة بالصف الشرقي. والدتها الحرمة زينب بنت السيد أسعد الصغير.

السيد أحمد جلبي بن المرحوم السيد عبد الفتاح الوزان أوصى له عمه المرحوم السيد عبد الغني بن محمد.. ثلاثة قراريط وخمسة أتساع قيراط من الدكان المذكورة.

بيع الدكان المعنية للسيد محمد بن صالح الوزان»⁽¹⁾.

ثمّ تنتقل لعام 1296 هـ / 1879 م، حيث تظهر شخصيات جديدة، ف«السيد سعيد آغا بن السيد قاسم.. دفع إلى ورثة السيدة آمنة بنت حمزة العش مستحقاتهم على رقبة الدار، الكائنة ظاهر دمشق بمحلة القنوات بالتعديل بزقاق الحضرة الكبرى، الجارية في وقف السادة الخلوتية بحضور ناظري الوقف، وخلت له رقبة الدار المذكورة.

القاطبون هم الأخوان السيد محمد بن السيد عبد القادر القصار والسيد عبد المجيد بن عبد الله صوّان، فالأول بالأصالة عن نفسه وبالوكالة عن شقيقته الحرمة وسيلة بنت عبد القادر القصار والثاني بالأصالة عن نفسه، والآلة إليهم رقبة الدار المرقومة إرثاً عن والدتهم السيدة آمنة بنت حمزة العش المذكورة وإليها إرثاً عن والدتها الحرمة زينب بنت الدرويش علي، ويشهد للمؤرثين الحجة المؤرخة في 6 صفر 1285 هـ الموافق 29 أيار/ مايو 1868 م.

(1) مرجع سابق: سجل 463، وثيقة 191، لعام 1270 / 1854.

أخو القابضين لأهمهم السيد علي بن حسن العكّام⁽¹⁾، شاهد.⁽²⁾ وأخيراً، نجد في سجلات المحاكم الشرعية العثمانية عام 1311 / 1893 م، إنَّ «عطا أفندي بن سعيد آغا بن قاسم آغا.. وكيل عن الحرمة وسيلة بنت عبد القادر بن محمد القصّار. قبض بالوكالة من وقف الحرمين الشريفين مبلغ مستحق للسيدة وسيلة القصّار المذكورة على رقبة دار بالقنوات بالتعديل جارية فيه.

أخوا وسيلة بنت عبد القادر القصّار لأمها هما عبد المجيد بن عبد الله بن إبراهيم صوّان وعلي بن حسن بن علي الصغير. توقيع محمد عطا..⁽³⁾

ثانياً - حيّ الميدان

وحيّ الميدان، المعقل الأصلي لعائلة الصغير، هو حيّ دمشق الجنوبي خارج السور، وقد كانت نوّيات الحي الحالي قرى صغيرة وتجمعات سكنية متفرقة وساحات واسعة ومنازل مشتتة ضمن البساتين، وقد تشكل الحي باتصالها ببعضها.

أصبح الميدان شبه قرية كبيرة لا سور لها، ولكنها منعزلة عن «المدينة»، وهو التعبير الذي كان يطلقه الدمشقيون على دمشق داخل السور، ومفارقة لما حولها من قرى ومضارب العشائر، وطرق التجارة.

عند كل مدخل زقاق قبر، يقال أنه لصحابي أو عالم أو ولي، ولا شك أن بعضها ثابت.

(1) علي بن حسن العكّام نسب هنا إلى منتهته وهو علي بن حسن بن علي الصغير كما سيأتي في النص أعلاه، والعكّام هو الذي يقود الجمل في رحلة الحج، انظر قاموس الصناعات الشامية للقاسمي.

(2) سجلات محاكم دمشق الشرعية العثمانية: سجل 708، وثيقة 96، لعام 1296 / 1879.

(3) مرجع سابق: سجل 1017، وثيقة 100، لعام 1311 / 1893.

يبدأ ميدان الحصى من باب المصلى حتى الجزماتية.
والقبيبات أو الميدان الفوقاني عند جامع الدقاق.

أما الطريق السلطاني الواسع فيبدأ من باب الجابية وينتهي ببوابة الميدان، ويقال لها بوابة الله لأنّ منها يمر طريق الحج إلى بيت الله الحرام، وزيارة مسجد رسول الله. وأطلق على الطريق السلطاني اسم سوق الميدان، ويضم مجموعة من الأسواق المختلفة هي بالتسلسل: سوق السنانية، وسوق النحاتين، وسوق الغنم، وسوق السويقة، وسوق باب المصلى، وسوق الميدان التحتاني من باب مصلى إلى الجزماتية، وسوق الميدان الوسطاني من الجزماتية إلى جامع الدقاق، وسوق الميدان الفوقاني من جامع الدقاق إلى بوابة الميدان.

وكان في العصر العثماني الأخير من الأسواق النادرة، وحسبها يذكر عربي كاتب⁽¹⁾، فقد كان امتداداً لسوق الدرويشية، ويضم عدداً من المقاهي وحواصل الخنطة والحبوب ومحلات بيع الأغذية والأغنام والجلود ولوازم أهل حوران.

وقد استوطن كثير من أهالي حوران الحي سواء منهم من جاء من محافظة درعا أو من محافظة السويداء حيث اشتهر الحي الذي سكنه الأخيرين بالميدان باسم «حيّ التيامنة».

ومن أقدم أحياء الميدان حي النصارى في باب مصلى، وفي الميدان ثلاث كنائس هي: كنيسة القديس جاورجيوس، وكنيسة حنانيا الميدان، وكنيسة سيّدة النّياح. ومعروف الموقف المشرف لأهالي ووجهاء الحي في الدفاع عن مواطنيهم من النصارى في فتنة الستين الطائفية المؤسفة.

(1) عربي كاتب، عز الدين: الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية، تحقيق صلاح موصلي، دار الفارابي، دمشق، 2000.

في الميدان أبناء عشائر توطنت أيام الفتوحات وقبلها، وقد عرف العصبية اليمانية والقيسية حتى عهد قريب، كما عرف حيّ عقيل وقهوة العكيل من سكان نجد، وعلى الاخصّ أهل القصيم.

كما يوجد حارة المغاربة عند الطرف الشرقي لمقبرة الباب الصغير، وخان المغاربة في السوقية ممن هاجر إلينا من كل بلاد المغرب.

كذلك سكن مجموعة من التركمان قديماً المنطقة المعروفة اليوم بـ الحلقة، وذلك قبل أن يصبح الميدان حياً. وتشير قباهم المعروفة «بقباب التركمان» إلى وجودهم فيه في سنة 545هـ / 1150م. وقد دعا محمد بن كنان الصالحى، المتوفى سنة 1153هـ / 1740م، هؤلاء «التركمان» بالـ «الحقلاجية» نسبة إلى منطقة الحلقة المذكورة. وذلك في كتابه «الحوادث اليومية من تاريخ أحد عشر وألف ومئة»، كما سبق.

كما سكن الميدان مجموعة من أهالي جبال الساحل السوري، ومن المعروف إنّ العديد من أكبر عائلات الميدان اليوم تعود أصولهم إلى جبال الساحل السوري، حيث ما يزال أبناء عمومهم يسكنون هناك.

وكذلك استوطن هذا الحيّ الكثير من سكان المحافظات الأخرى فنهم الحمصي والديري والحموي والخاني وكذلك من جاء إليه من دول عربية وإسلامية أخرى ومن هؤلاء المصري، والمعاني والحجازي والأفغاني والأرناؤوطي إضافة إلى مواطنينا المغاربة والتركمان المذكورين سابقاً.

يعتبر تنوع أصول سكان حيّ الميدان، كما يظهر في السطور السابقة، وانصهارهم في بوتقة واحدة واندماجهم في لحمة اجتماعية واحدة، وابتهاجهم في أفراحهم، وفزعته في ملهاتهم كما هو ظاهر في واقع الحيّ اليوم، رغم تنوع أصولهم الجغرافي والعرقى أو عقائدهم الدينية، فكلهم اليوم يعرف بـ «الميداني»، نموذجاً لتعايش أهل الشام يجمعهم الانتماء الوطني والمصالح العليا للبلاد.

وقد نظم الحي في عهد الوالي مدحت باشا وزرع جانباه بشجر الأزدרכת وكان له رصيفان بعرض ثلاثة أمتار ونصف، وإلى جانب كل رصيف قناة مكشوفة لجر المياه صيفاً، لرش الطريق الوسطى، طريق العربات.

وقد ازدادت محاسنه عندما صارت تعبره الحافلات الكهربائية سنة 1325هـ/1907م.

وقد لعب هذا السوق دوراً بارزاً في العصر العثماني والمملوكي أيضاً. إذ كان يقع على الطريق الدولي الذي يصل دمشق بالقاهرة وبالأراضي المقدسة في الحجاز، ولذلك أقيمت فيه مجموعة من المنشآت الهامة الأثرية، أهمها بحسب التسلسل: جامع السنانية، وحمام السنانية، والمدرسة الأفريدونية، والمدرسة الصابونية، ومجموعة من التربة الخاصة، التي لا يزال معظمها إلى اليوم، وجامع النقشبندي أو جامع السويقة، وجامع باب مصلى، وجامع صهيب الرومي، وجامع أراق السلحدار، وحمام فتحي الدفتردار، وحمام الرفاعي، وجامع منجك، وحمام الحديد، وزاوية سعد الدين، وجامع الدقاق أو الجامع الكريمي وغيرها.

وكان موسم خروج قافلة الحج وعودتها من المواسم الرائعة التي يشهدها هذا السوق في كل عام. وقد نشرت صورة نادرة لقافلة الحج والمحمل تعود إلى سنة 1320هـ/1902م تقريباً.

وفي أثناء الثورة السورية الكبرى، 1925-1927م، تعرّض السوق وحي الميدان إلى التدمير بسبب القصف الفرنسي، ثم أزيلت معظم معالم هذا السوق في الوقت الحاضر، وقامت على أنقاضه بنايات شاهقة، لتقضي على الآثار التي نجت من قنابل فرنسا.

أما عن الحياة العلمية فقد كان في الميدان تجمعات علمية وخصوصيات خلقية وميزات متأصلة فيه، وهي باقية حتى اليوم.

فالفقه الشائع بين أبناء الشعب كافة كان فقه الإمام الشافعي . مع وجود آثار يراها المتتبع من بقايا الحنبلية والظاهرية في المعتقد والفقه.

وفي الميدان يوجد مسجد شيخ الإسلام ابن تيمية، ويسمى مسجد القرشي . وبيته في المدرسة السكرية قبيل بداية الحي في باب الجابية . ويتداول الخلف عن السلف أخبار أمره بالمعروف، وشجاعته في كل المواطن وجهاده . كما قام الشيخ ابن عروة الحنبلي الميداني في جمع تراث السلف في كتابه الموسوعي الكبير النادر «الكواكب الدرية» وأدخل فيه العشرات من مؤلفات شيخ الإسلام.

وأصاب جور الحكام وحاف على أهل الميدان في أوقات كثيرة، حتى كانت نهضة الشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ عبد الرزاق البيطار، والعلامة بهجة البيطار، والجميع يعرف فضله، ومعهم أفراد غمرهم الجحود منهم الشيخ سعيد الحافظ، والشيخ محمد بدر الدين الفقيه المصري، رحم الله الجميع .

وحي الميدان كان قلب المقاومة ضد فرنسا منذ دخولها إلى بلادنا، وقام بدور مهم في الثورة السورية الكبرى سنة 1344هـ / 1925م . وكان القائم الأكبر بأعباء الجهاد في فلسطين من عام 1927 إلى 1939م .

والتعليم في الميدان كان في الثلث الأول من القرن العشرين الميلادي يجري بطريقتين: الأول هو الغالب يتمثل بالكتاب عند شيخ يلقي الأطفال قصار السور وبعض الأحاديث القليلة ومبادئ الحساب وأحكام الوضوء والصلاة . أما الثاني ففي تلك الأيام بُدئَ بفتح المدارس الرسمية، ولكن قوبلت بردة فعل عنيفة خوفاً على عقائد الأبناء ورفضاً لسيطرة المستعمر الكافر على مناهجنا وتربية أولادنا . وقدبرز ذلك من بعض أهل التدين، وتمثل بمظهريين أولها

مقاطعة المدارس الحكومية المجانية، ثانيها رفع مستوى الكتابيب وجعلها مدارس تعلم المواد التي ألزمهم بها نظام التعليم الحديث، مع المحافظة على المواد الأولى، وكانت هذه الكتابيب محل ثقة الناس، مع أنها كانت بأجور، ولم توفر لأصحابها مالا، لكثرة النفقات، وضعف الموارد، وتعدد هذه المدارس.

وأنوه بمدرستين منها على سبيل المثال، الأولى هي المدرسة الأموية وعلى رأسها الشيخ محمد سعيد الحافظ وكان فضلاً على علمه من أهل الوعي والجهاد والعمل العام، محرر الفكر، وهو في السياسة مثل غالبية أهل الحي على خط الزعيم عبد الرحمن الشهبندر، والرئيس حسن الحكيم، وفي التعليم والتعبد على المستطاع من نهج السلف الصالح. وبعد أن أغلقت المدرسة، بعد الاستقلال الجزئي وتحسن أوضاع المدارس الحكومية، تابع مع بعض رصفائه وطلابه نشاطه في العمل العام، بجميع جوانبه الدعوية والاجتماعية، وكان منهم العدد الكبير من الأساتذة مثل: زهير الشاويش، وسعيد أبو شعر، وكامل حتاحت، ومحمد الكنجي، ومحمد خير الجلال، تغمدهم الله برحمته وبارك بالأحياء منهم.

والمدرسة الثانية، أو الكتاب، فهي المدرسة المحمدية، أسسها وعلم فيها بمفرده الشيخ محمد بدر الدين الفقيه، المصري، الحافظ لكتاب الله، والجامع للقراءات، المتمسك بالدليل والداعية بالحكمة والقُدوة الحسنة وأدب اللفظ وأمانة التعامل. وحضور الشيخ محمد إلى دمشق كان بمسعى الشيخ كامل القصاب والشيخ بهجة البيطار.

وقد ظهر في حي الميدان مجموعة من أكابر العلماء المعاصرين نذكر منهم: الشيخ بهجة البيطار المذكور آنفاً، والشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ حسن حبنكة، وأخيه الشيخ صادق حبنكة، والشيخ مسلم الغنيمي، والشيخ سعدي ياسين وغيرهم.

وسأكتفي بذكر ترجمة اثنين من الشخصيات المذكورة، ومن أراد المزيد الرجوع إلى كتب التراجم التي تذكرهم جميعاً:

الأول هو الشيخ عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار (1253-1335هـ/1837-1916م): عالم بالدين، أديب، مؤرخ، شاعر. مولده ووفاته بدمشق. من دعاة الإصلاح، يأخذ بقوة الحديث. من كتبه «حلية البشر في أعيان القرن الثالث عشر» ترجم به لمعاصريه.

أما الثاني فهو الشيخ جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي (1283-1332هـ/1866-1914م): إمام الشام في عصره، عالم وأديب، مولده ووفاته بدمشق، طاف المحافظات السورية في نشر العلم ورحل إلى مصر وزار المدينة المنورة. تمسك بالدليل الصحيح، فُتن وبُري سنة 1313هـ/1894م. ثم انقطع في دمشق للتصنيف والتدريس في التفسير وعلوم الدين والأدب. نشر بحوثاً كثيرة في المجالات والصحف. ذكر الزركلي أنَّ له 72 مصنفاً، منها محاسن التأويل 17 مجلد وتعطير المشام في محاسن دمشق الشام 4 مجلدات.

ويدخل في المؤثرات التربوية نصائح واقتراحات الأقارب وأهل الحي ليتابع الفتى المرموق، بنظرهم، ما كان عليه رجالات الميدان من الانتصار للقضايا المتعددة وبعضها محلي ضيق، وأشرفها الجهاد في سورية، والقتال في فلسطين.

وللأم في الحي دور كبير في تعليم الأبناء وتوجيه طموحاتهم، وإن كان الأمر مختلفاً حسب درجة تحصيلها العلمي ومحيطها العائلي. ولم يكن نادراً لدى الميدانيات، خاصة الناشئات بالقرب من رجالات الزعامة والسياسة، مَنْ ترغب أن يكون ابنها من أهل القرآن والعلم أولاً، وأن يكون محل الوالد والجد في ديوان العائلة، المجلس البراني، المعد للضيوف، وأن يكون ابنها مجاهداً مثل أهله

وأهلها وغيرهم، وسياسياً مثل الشهبندر والقصاب، وتاجرًا بحجم تجارة أبيه وأبيها ورغبات أخرى ما كانت تحلم بها غيرها من النساء⁽¹⁾.

ثالثاً- الأشراف

شرف الله العديد من عائلات بلاد الشام، ومنهم جمٌّ من عائلات حيّ الميدان الدمشقي، بالنسب الشريف، فمن هم هؤلاء وكيف اكتسبوا هذا الشرف وما الذي امتازوا به من حقوق وواجبات قديماً وحديثاً، مع كونهم جزء لا يتجزأ من لحمة المجتمع في بلاد الشام؟ هذا ما سنتناوله فيما يلي.

الأشراف هم المسلمون المعترف بانتسابهم إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم ويشار إلى أحدهم بـ «الشريف والشريفة» أو «السيد والسيدة» واللقب الأخير كان أكثر شيوعاً وأوسع انتشاراً.

وكان الأشراف يتمتعون بمكانة في المجتمع الإسلامي تضاهي مكانة طبقة النبلاء في المجتمعات الغربية، وكانت لهم العديد من الامتيازات القانونية والاقتصادية: وفي مقدمتها الإعفاء من الخدمة العسكرية، ونصيباً من عوائد عقارات موقوفة عليهم، ونصيباً من عطايا الدولة في موسم الحج، والحصانة من التقاضي أمام المحاكم باللجوء إلى نقيبهم للنظر في قضاياهم.

وتلاشت شيئاً فشيئاً تلك الامتيازات خلال القرن التاسع عشر مع إنشاء الجيوش النظامية والنفير العام وتوسيع النظام القضائي وإصلاحه.

ومع ذلك، ظلّ للنسب أهمية مركزية عند الأشراف حتى عهد متأخر من القرن العشرين. إذ إنه كان دليلاً على: رفعة مكانتهم، وحقهم في الانتماء إلى هذه

(1) شاويش، زهير: محاضرة عن سيرته الذاتية ألقاها يوم تكريمه في الندوة الإثنية بجدة بتاريخ 21 شوال 1416 هـ الموافق 25 شباط/فبراير 1996 م، المكتب الإسلامي، بيروت، 1996.

الشريحة ذات الاعتبار المستمر في المجتمع مهما كان البلد الذي قدمت منه الأسرة، أو الحرفة التي تمارسها، أو المستوى الثقافي الذي بلغته، أو نصيبها من الثراء.

ويبدو إنّ بعض الأشراف كانوا يدعون لأنفسهم مكانة تفوق مكانة الآخرين. فأخذ بعضهم، في القرن الثامن عشر، يضيف إلى لقب «السيد» ما يشير إلى انتسابه إلى الحسن أو الحسين.

وإنّ الظهور المفاجيء للسادّة في عدد من الأسر التي لم تكن تعتبر من الأشراف، إنما يعني اكتساب هذه المكانة عن طريق المصاهرة بزواج أحد أبنائها من إحدى بنات الأشراف، ما أكسب أولادها نسب الأسباط، فكانوا يعتبرون من السادة، دون حملهم صفة «الحسني» أو «الحسيني»، وكثيراً ما كانت سلالتهم تفقد تدرجياً اللقب الشريف.

توزع الأشراف في الفروع على المذاهب الفقهية بشكل متوازن، مع ملاحظة ندرة الاهتمام بذلك لدى الآخذين بالمذهب الحنبلي. ولقد برز العديد منهم في الفقه، والتدريس، والقضاء، والتصوف ويكاد يكون للأسر كافة التي تولى أبنائها نقابة الأشراف زوايا صوفية خاصة بها.

ومن أسر الأشراف في دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: الإيجي، الألشي، الجزائري، الحجار، الحسيبي، الحصني، حمزة أو بني حمزة أو الحمزاوي، عابدين، الدسوقي، العجلاني، الصمادي، الكيلاني، المرادي، المرتضى، المنير، الموقع، النصري أو الحصري، وغيرهم.

كان منصب النقيب أعلى منصب يختص به الأشراف، وهو: المرجع الأخير في القضايا التي تتصل بهم، ويقوم بحفظ حقوقهم، ويمثلهم أمام السلطات العثمانية، وهو الحكم في المنازعات التي يكون أحدهم طرفاً فيها.

وغالباً ما كان النقيب يجمع بين منصبي النقيب و شيخ المشايخ، أو كان يتولى هذين المنصبين اثنان من أسرة واحدة. وكان منصب شيخ المشايخ يعتبر لدى السلطات العثمانية المنصب الأعلى في الطوائف الحرفية والطرق الصوفية.

لا نكير إن الانتساب إلى آل بيت النبي ﷺ شرف عظيم ومسؤولية كبيرة. وقد قال الحصني⁽¹⁾ في تاريخه:

«إنما ذكرنا أبناء العترة الطاهرة ومن يلتحق بهم لأجل أن نعظمهم:

- أولاً بوجوب التمسك بطريقة أسلافهم الطاهرة.
- وأن لا يطوحوا بأنفسهم إلى ما فيه هوانها وابتذالها.
- ولأجل أن ننصح سائر الخلق بوجوب رعايتهم وإكرامهم وتوقيرهم وقضاء حوائجهم مهما بعدت سلسلة النسب.
- راجين أن يرجع الناس بذلك إلى ما كان عليه سلفهم الصالح من علو الأخلاق والحب في الله والبغض في الله وتكريم رحم رسول الله ﷺ.

ويتابع الحصني: «وإننا لنأسف على الحالة الأخلاقية التي عم بسببها ذلك التهاون وأصبح المنقب، عن مزايا الأمم الإسلامية وما أودعته تعاليم دينهم في النفوس من إعظام السادة الأشراف الذين أتى جدّهم عليه الصلاة والسلام بتلك التعاليم والعلماء الأعلام الذين وقفوا أعمارهم على نشرها، يصعب عليه ربط حلقة طبقات المسلمين في هذه البلاد بما قبلها من حلقات طبقات أسلافهم الذين نشرت بسببهم في أقطار بعيدة وأصقاع شاسعة، كبلاد الهند وبخارى

(1) محمد أديب تقي الدين الحصني (1292-1358هـ/1875-1940م): السيد الشريف الحسيني، فاضل، مؤرخ، ولي نقابة الأشراف بدمشق مدة وتوفي بها. ألف كتابه القيم «منتخبات التواريخ لدمشق» فابتدأ فيه سنة 1918م وانتهى منه، كما نوه بذلك، تأليفاً وطباعة، سنة 1929م، وهو من أحسن ما كتب في التاريخ المعاصر لمدينة دمشق.

والغرب والأفغان وإيران، فضلاً عما رسخ في أنفسهم من المزايا والأخلاق الكريمة.

«وأقرب الأسباب التي يتناولها المؤرخ، تعليلاً لذلك التهاون، هو: قلة العناية بسيرة السلف الصالحين، وزيادة الحرص على حطام الدنيا، والغفلة عن الاقتداء بالسلف، وعن تقدير من يقوم بالأعمال العامة حق قدره.

«ولا أنسى أن أدعو لقومي في هذه البلاد أن يلهمهم مولاهم تقليد العراق واليمن والأناضول والحجاز والمغرب ومصر وبخارى وما يتبعها والهند وبلاد العجم والأفغان وجزيرة العرب في الرجوع إلى تكريم واحترام مَنْ بينهم من السادة الأشراف، ولو كانت نسبته من الأمهات.

«ويجوز نسبة الرجل إلى أمه إذا اشتهر بذلك. ومن المشهور، مثلاً، إنّ الصحابي الجليل عمرو بن أم مكتوم رضي الله عنه كان ينسب إلى أمه».

وهو عمرو بن أم مكتوم رضي الله عنه: هو الصحابي الجليل المعروف باسم «ابن أم مكتوم» الأعمى واشتهر أيضاً باسم «عبد الله بن أم مكتوم» اسمه عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم بن رواحة القرشي العامري. أمه أم مكتوم اسمها عاتكة بنت عبد الله بن عنكثة بن عامر بن مخزوم، وهو ابن خال أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فأم خديجة هي فاطمة بنت زائدة بن الأصم وهي أخت قيس. هاجر إلى المدينة المنورة بعد مصعب بن عمير رضي الله عنه، قبل أن يهاجر الرسول ﷺ إليها فجعلوا يُقرئان الناس القرآن. فيه نزلت الآيات 1-10 من سورة عبس و «غير أولي الضرر» من الآية 95 من سورة النساء. كان يُؤذّن للنبي ﷺ بالمدينة مع بلال رضي الله عنه. استخلفه رسول الله ﷺ على المدينة ثلاث عشرة مرة، في غزواته وشهد فتح القادسية ومعه اللواء وكان يُصلي بالناس في عامّة غزوات الرسول الله ﷺ.

ويتابع الحصني: «وقد كتب المؤرخ الشهير والعالم النحرير الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي، إمام جامع السنانية، تأليفاً لطيفاً في صحة شرف الأسباط. وأورد في مؤلفه الأدلة الكافية في قوة شرفهم والتحاقهم بالسيادة.

ثم تكلم الحصني عن وظيفة نقيب الأشراف، نشأتها ومهامها قائلاً:

«إنَّ هذه الوظيفة كانت توسد لأكابر ذوي الشرف أحفاداً كانوا أو أسباطاً. إلا أنه في الحجاز والعراق ودمشق وبخارى والأفغان والعجم وأشهر البلاد العربية خصَّوها في الأحفاد. وأما في الديار المصرية فإنها أعطيت للأشراف من الأسباط وهم رجال البيت البكري فهم من أسباط سيدنا الحسن رضي الله عنه ولم تزل فيهم من القرن الثاني عشر إلى اليوم.

«وبالجملة، فإن حب آل البيت الطاهر سواء كان من الأحفاد أو من الأسباط أمر لازم، زرع في قلب الأمة الإسلامية وملوكها وغنيها وفقيرها، من ظهور الإسلام إلى اليوم، كرامة إلى جدِّهم عليه الصلاة والسلام القائل: «خيركم خيركم لأهلي من بعدي» [حديث حسن].

وأردف الحصني بقوله:

«وإذا ظهر من بعضهم أمر يخالف أوامر جدِّهم، وغفل أحدهم عن سلوك طريق هديه وسنته، فيلزم علينا أن: نرشد جاهلهم، وننصح غافلهم، وندلهم على طريق الصواب، ونجتذبهم بأيدي الحكمة إلى ما فيه خير دنياهم وآخرهم. «الذي يوجب لهم: نظر الرفق والرأفة من الحبيب الأبواب، وأن نحسن الظن

بهم.

«ولا غرو أن أحبيننا بهم صحة نسبهم أن نكف عن مساوئهم.

«قال صاحب الروض البسام: «قد سألتني بعض المحيين أن أكتب رسالة تشير إلى بطون قريش التي بالديار الشامية: ليعلم لهم المسلم الخالص حقوقهم المرعية، فيعظم عظيمهم، ويرحم فقيرهم، ويواسي كريمهم، ويؤديهم حق المودة المطلوبة». ثم قال: «إن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي صرحت بفضل قريش وآل البيت الكرام والذرية المصطفوية كثيرة لا ينكرها إلا جاحد أو منافق. وقد كثر الجهل بالنسب في زماننا تلقى العامي يجلس مع جماعته من ذوي جلده فيتحكم بأنساب الناس ويدعي جهلاً منه بصحة هذا وتكذيب ذاك إما حسداً أو بغضاً. والإمام مالك يقول: «الناس أمناء على أنسابهم».

والقائل هو أبو الهدى الصيادي (1266-1328هـ / 1849-1909م): محمد بن حسن وادي بن علي بن خزام الصيادي الرفاعي الحسيني، أبو الهدى. أشهر علماء الدين في عصره، وله الباع الأطول في النسب، والتاريخ، والتصوف، ألحق بخدمة السلطان عبد الحميد الثاني فقربه لديه وقلده مشيخة المشايخ في دار الخلافة. ألف مصنفات عديدة منها كتاب «الروض البسام في أشهر البطون القرشية في الشام» المذكور. ولد في خان شيخون من أعمال حلب، توفي رحمه الله في استنبول ودفن بزاويته هناك وبعد مضي 30 عاماً نقل جثمانه إلى حلب ودفن إلى جانب والده في تكيته المشهورة.

ثم تابع الحصني: «ولا يخفى الوزر الذي يلحق الداخل بلا نسب والخارج بلا سبب كما ورد في الحديث: «كفر بامرئ ادعاء نسب لا يعرفه أو جحده وإن دق» [حديث صحيح]. وقد ذكر بعضهم قولاً آخر نقله عن السلف: «من ادعى انتساباً إلى نسب من الأنساب الكبيرة عزز لا سيما نسب الشرف» لئلا يتجرأ كذاب على الدخول في نسب النبي ﷺ.

«وينبغي لذوي الانتساب إلى كل شريف أن يصونوا شرف نسبتهم عن الدنس ويحفظوا ذلك بكمال التحري بصحته. فإنّ «الناس يؤتمنون على أنسابهم» كما ذهب إليه الإمام مالك. وقد حث الشارع على معرفة الانتساب، أخرج الحاكم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثرة في المال منسأة في الأجل» [حديث صحيح].

«وبالجملة إذا ثبت النسب بشهادة أرباب الرتب فلا يجوز الطعن في أهله ويجب توقير أصحابه إكراماً لمن إليه انتسبوا وعليه حسبوا.»⁽¹⁾

نكتفي بهذا القدر فيما يتعلق بأهل العترة الشريفة، ويتضح مما ذكر إنّ ما عليهم من واجبات أكبر بكثير مما لهم من امتيازات خاصة بعد تراجع الأخيرة التدريجي مع دخول عصر الإصلاح. ننتقل الآن إلى نقطة محورية أخرى جاءت في النص السابق تتعلق بالتركمان والتي ستقودنا إل الخوض في الأصول القومية والعرقية المختلفة لمكونات شعب بلاد الشام دون أن يكون لذلك انعكاساً على لحمتهم الاجتماعية.

ثالثاً - التركمان

قبل الحديث عن التركمان، إحدى المكونات الأساسية للشعب السوري مع العرب والأكراد، نوطئ بمقدمة توضح لنا كيف عاش أسلافنا بمختلف أصولهم ومعتقداتهم بسلام ووثام واندماج اجتماعي كامل منذ قرون طويلة.

لقد ذكرنا إنّ سكان الميدان متعدد المنشأ والأصول والمعتقد، ويعتبرون في ذلك نموذجاً لسكان إقليم بلاد الشام، ويبين علم الاجتماع إنّ هذا التنوع ليس

(1) الحصني، محمد أديب: منتخبات التواريخ لدمشق، 3 أجزاء، دار البيروتي، دمشق، ط1، 2002، ج2، ص 804-808 بتصرف.

حكراً على بلادنا وهو الأساس في كافة المجتمعات، خلا البدائية منها. وقد أُلّف بين هذه المكونات الاجتماعية، كالمجتمعات الأخرى، روابط صلبة أهمها في عصرنا هو رابط الوطن وإردة الانتفاء إليه والمصالح العليا للوطن التي هي في النهاية مصالح المواطنين المشتركة أو المصلحة العامة.

والمواطنون متساوون في الحقوق والواجبات، كرامتهم مصانة بقوة القانون، وإنّما التفاضل في مدى النزاهة وصحة الضمير وتقوى الله بما فيها تقوى الله في الوطن وأهله، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال رسول الله ﷺ: «يأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجْمِي وَلَا لِعَجْمِي عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرٍ عَلَى أَسْوَدٍ وَلَا لِأَسْوَدٍ عَلَى أَحْمَرٍ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُمْ» [حديث صحيح]. وقال: «كلكم بنو آدم وأدم خلق من تراب. ولينتهين قوم يفتخرون بأبائهم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان^(١)» [حديث صحيح]. وإذا علمنا أنّ النزاهة والضمير والتقوى لا يعلم كنهها إلا الله، كما جاء في الآية المذكورة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]، إلا من ظهر عليه وثبت اختراقها وهو الاستثناء، علمنا مدى سمو المساواة والكرامة في ثقافتنا ومجتمعاتنا مهما اختلفت الأصول والمعتقدات، فالخطاب في النصوص السابقة موجه إل الناس كافة: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]، «كلكم بنو آدم»، وليس إلى فئة منهم، والشواهد على ذلك في تاريخنا كثيرة: فقد قاضى كتابي رسول الله في قرض، ووقف أميري المؤمنين عمر وعلي رضي الله عنهما وهما في قمة السلطة مع خصميهما الكتابي والأعرابي سواسية أمام القاضي شريح في قضية فرس وقضية درع على الترتيب، وغير ذلك كثير.

(١) جعلان: جمع جُعَل، حيوان كالخنفساء يكثر في الأماكن الندية.

إنّ تنوع مكونات المجتمع لا يرمي إلى التناحر والخصام بل إلى التعارف والوئام، فالمصالح العليا الجامعة تقتضي التعارف بين المكونات والتفاهم والتوصل إلى القواعد التي تحفظ مصلحة الجميع وتراعي خصائص كل منهم وهذا ما نجده في قوله تعالى في نفس الآية السابقة ﴿لَتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]. ونذكر في هذا المقام إن التناحر والخصام بين مكونات المجتمع الواحد، وهو ما يعرف اليوم بالحرب الأهلية، هو من أشد أنواع البلاء وأعتى أنواع العذاب التي تصيب أفراد المجتمع، ونرى ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا بَئِينَ فَوْقَكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ۚ إِنَّظِرْ كَيْفَ نَصَرْتُ الْآلِيَةَ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (١٥) [الأنعام: ٦٥].

هذه هي قناعات أهل الميدان بكل مكوناتهم، بل هي القناعات على عاش عليها أبناء إقليم بلاد الشام على مر العصور، فهم محكومون بالعيش معاً يجمعهم الوطن ومصالحه العليا.

فقد قال البحري (205-284هـ / 820-897م) في قصيدة طويلة عن الشام بعد زيارته لها يصف فيها دمشق وأهلها:

يا فتية الشام شكراً لا انقضاء له	لو أن إحسانكم يجزيه شكران
ما فوق راحتكم يوم السماح يد	ولا كأوطانكم في البشر أوطان
الملك أن تتلاقوا في هوى وطن	تفرقت فيه أجناس وأديان
ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم	ونحن في الجرح والآلام إخوان

وبعد هذا العرض لرؤيتنا إلى بعضنا، في الواقع الذي نعيشه، وبعدها التاريخي والثقافي، للنظر الآن إلى بعض النظريات المعاصرة في ذلك، وهي التي تقوم عليها الأمم والدول المتقدمة والمعاصرة، والتي قدّمها حكماء العالم لتوضح

حقائق تعيشها الشعوب في واقعها، لتتمكن من العيش مع بعضها بسلام في أوطانها ولسد أبواب تدخل الطامعين في خيراتها.

فالعلامة محمد كرد علي (1876-1953م)، الذي يفخر بعروبته رغم أصوله العرقية البعيدة، وهو الرئيس المؤسس لمجمع اللغة العربية بدمشق وأول المنافحين عن اللغة العربية، يرى إن العربي هو من تكلم العربية وعاش في بلاد لغة أهلها العربية لثلاثة أجيال.

أما نظرية الكاتب الفرنسي أرنست رينان Ernest RENANE الذي خاض نقاشاً حاداً مع المفكرين الألمان الذين كانوا يرون سكان منطقتي الألزاس واللورين، الفرنسييتين الحدوديتين التي كانت ألمانية تحتلها منذ سنة 1870م، ألمانية من حيث العرق، فردّ رينان قائلاً: «إنّ الانتماء إلى قوم ليس مسألة عرق بل مسألة إرادة، ووصفه بالاستفتاء اليومي». فلا يزال هذا التعريف للقومية يلعب دوراً كبيراً في تصوّر الفرنسيين، وغيرهم من شعوب الأمم المتقدمة، لشعبهم وهويتهم.

وأرنست رينان Ernest RENAN (1823-1892م) هو مستشرق، ومؤرخ، ونحوي فرنسي، درس الفلسفة وانتخب عام 1878م عضواً في الأكاديمية الفرنسية، عاش سنوات في بلاد الشام، لا سيما لبنان وفلسطين، بمهمة رسمية من حكومته تعرف خلالها على الشرق الأدنى وتاريخه وفكره. تناولت كتبه دراسات لغوية وتاريخية وفكرية وحظيت بشعبية كبيرة. أسّس لنظريات استشراقية استعلائية وسلبية تجاه الحضارة الإسلامية، وردّ الشيخ جمال الدين الأفغاني (1838-1897م) أفكاره ونظرياته الاستشراقية في سجل معه على صفحات الصحف الفرنسية.

وإذا كان حبّ الوطن فطرة في الإنسان، فإنها تدخل في صميم ثقافتنا لا يوجد ما يمنعنا من الاجتماع عليها، خاصة في ظرف تاريخي فرضت علينا توازنات القوى الكبرى كيانات جيوسياسية لا تسمح لنا بالاجتماع على أكبر منها، والتي هي مسقط رأسنا ومكان عيشنا والتي نسعى بحب وإخلاص لعمرانها وتطورها، فهي في النهاية: الوطن، وإن كان تاريخنا وثقافتنا وتطلعاتنا تجعلنا نصبو لأكبر من ذلك كغيرنا من الأمم المعاصرة.

فالمصالح المشتركة أو المصلحة العليا للوطن أو مصلحة المواطنين أو المصلحة العامة تأتي على رأس أولويات مقاصد الشريعة، كما فصلته علوم الفقه وأصوله وكذلك علوم المقاصد. وقد جعل الله أمر هذه الأمة وقرارها بأيدي أبنائها، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، فما دامت تحترم العدل والمساواة والكرامة وعدم احتكار القرار والشأن العام بإعطاء الحق لمن كان له الرغبة والكفاءة بالمساهمة في ذلك، لا يوجد ما يمنع اجتماعها على قيم ومصالح مشتركة. والأمر بعد ذلك مفتوحة للاجتهاد سواء من قال بإعطاء الأولوية للتوزيع العادل للثروات على جني المال واستثماره، أو من أعطى الأولوية لجني المال واستثماره لنستطيع تكوين الثروة والمحافظة عليها لتوزيعها العادل بعد ذلك على المواطنين أو من اتخذ بين ذلك سبيلاً. وليس ما يمنع من الاستفادة من العلوم الحديثة في ذلك وتسمية الأمور بمسمياتها المعاصرة بل نحن مطالبون بذلك. فديننا لم يجمّد عقولنا بل أمرنا باستعمالها، والذين يعملون عقولهم ليسوا «المعتزلة الجدد» كما يحلو للبعض أن يسميهم، وتسمية الأمور بمسمياتها الحديثة العلمية المتعارف عليها ليس اعتناقاً لدينٍ جديدٍ كما يروج آخرون، وهو كذلك ليس هزيمة نفسية أما الحضارة الغربية كما يسوق البعض الآخر.

أما الوطن، فالحنين والشجن في طريق الهجرة نزل فيه قرآن يتلى إلى يوم الدين، فقد عانى رسول الله ﷺ من ترك وطنه مكة، وواسياه ربه في ذلك، فقال جلّ جلاله: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا تَاوِيَهُمْ﴾ [محمد: ١٣]. والتفت رسول الله ﷺ باتجاه مكة فقال: «ما أطيبك من بلد، وأحبك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك» [حديث صحيح]، فقد ألم نفسه أشد الإيلام اضطرارهم إياه للبحث عن موطن آخر، ثم الخروج إلى بلد آخر، وهيج ذلك في نفسه الكريمة معاني ومشاعر كبيرة وكثيرة، إذ لم يكن من السهل على صاحب هذه النفس العظيمة أن يصير حاله مع بلد الله الحرام التي نشأ في ربوعها، واختلط بأهلها وأشياؤها، وتجاوبت عواطفه مع مقدساتها، وطبعت ذكريات أيامه في مختلف نواحيها إلى الاضطرار للخروج منها.

إن حب الوطن فطرة إنسانية، ولم تزل الشعوب على اختلاف عقائدها وميولها وأجناسها متفقة على هذه الفضيلة، متجاوبة المشاعر مع هذه الفطرة. قال عمر رضي الله عنه: «عَمَّرَ اللهُ الْبِلْدَانَ بِحُبِّ الْأَوْطَانِ»، وقال ابن الزبير رضي الله عنه: «ليس الناس بشيء من أقسامهم»^(١) أقنع منهم بأوطانهم». وقيل: من علامة الرشد أن تكون النفس لبلدها تواقّة وإلى مسقط رأسها مشتاقّة. وقال الشاعر:

وَكُنَّا أَلْفْنَاهَا وَلَمْ تَكُ مَأْلَفًا وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن
كما تُؤْلَفُ الْأَرْضُ الَّتِي لَمْ يَطْبُ بها هواءٌ ولا ماءٌ ولكنها وطن
ويقول أهل الهند: حرمة بلدك عليك كحرمة أبويك. ويقول أهل إيران: تربة الصبي تغرس في القلب حرمة كما تغرس الولادة في الكبد رقة.

(١) أي ما قسمه الله لهم من الأرزاق والحظوظ.

ولئن كان هذا الشعور بحب الوطن أمراً فطرياً مغروساً في النفوس، فإن ديننا قد دعا إليه، وحبب فيه. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وُعثك أبو بكرٍ وبلاًل. قالت: فدخلتُ عليهما، فقلتُ: يا أبت، كيف تجدك؟ يا بلاًل، كيف تجدك؟ قالت: فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مُصَبِّحٌ في أهله والموت أدنى من شراك نعله
وكان بلاًل إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته، ويقول:

ألا ليت شعري هل أبينن ليلة بوادٍ وحولي إذ خَرَّ وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يبدون لي شامةً وطفل⁽¹⁾

قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ، فأخبرته، فقال: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها، وبارك لنا في صاعها ومُدّها، وانقل حمّاها فاجعلها، بالجحفة» [حديث صحيح].

ولم يزل هذا الحنين إلى مكة يزداد، حتى فتحها الله عليه، فعن عبد الله بن عدى بن سمراء الزهري رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ وهو واقف بالحزورة في سوق مكة: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت» [حديث صحيح].

وهكذا عبر النبي ﷺ عن حبه وحنينه إلى وطنه الحبيب الأثير العزيز الذي ولد فيه، ونشأ في رحابه وبلغ أشده تحت سمائه وفوق أرضه. وكذلك الصحابة المهاجرون كانوا يحاولون تخفيف حدة شوقهم، وإطفاء لظى حنينهم إلى وطنهم، بالأبيات الرقيقة التي تذكرهم بمعالم وطنهم من الوديان والموارد والجبال والوهاد والنجاد.

(1) بوادٍ أي بوادي مكة. الإذخر والجليل نباتان. مجنة وشامة وطفيل مواضع في مكة وضواحيها.

واستمر خلف هذه الأمة على هذا المفهوم للوطن، فقد قال البوصيري (608-696هـ/ 1213-1295م)، صاحب البردة رحمه الله:

ويح قوم جَفَوْا نبيًّا بأرضٍ أَلْفَتَهُ ضبابها والظباءُ
وسَلَوُهُ وَحَنَّ جَذغٌ إليه وَقَلَّوُهُ وودَّه الغرباءُ

لقد زار دمشق كثير من المؤرخين والجغرافيين والرحالة والشعراء والمستشرقين والعلماء وتحدثوا عنها بكل إعجاب وتقدير وحب كبير. يقول المستشرق رينان، السابق الذكر، عن دمشق وغطتها: «إن هذه البقاع الخصبة لم تعرف منذ أقدم أزمنة التاريخ إلا اسما واحداً، ولم توح إلا حلماً واحداً، ذلك أنها الجنة».

ومن جميل الشعر في دمشق:

يغذي بها القلب أنفاساً بلا كدر فلن يحل البوا أطراف ثاويها
إن الهواء إذا رقت مناسمه في بلدة لطفت أخلاط أهليها
فكل صورة أنس في منازلها وكل نزهة نفس في روايها
لولا أمور وأرزاق مقدرة لم يرتحل عن دمشق حاضر فيها

وبعد هذا التمهيد وفي هذا السياق، الذي يبين متانة الروابط الجامعة لكافة مكونات الشعب السوري، التي لا تعني إلغاء الخصائص الثقافية لكل واحد منها، بل التلاقي والتعارف والتلاحق، ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، ليأخذ كل من الآخر بعديل دون هيمنة لواحد على الآخر، لا ضير من الحديث عن التركمان إحدى المكونات الأساسية لهذا الشعب.

فالتركمان مجموعة من شعوب وقبائل آسيا الوسطى، ينتمون إلى العرق الآري، موطنهم الأصلي تركمانستان، امتد انتشارهم من أفغانستان شرقاً إلى

شرق أوروبا وبلاد القوقاز وشمال الجزيرة العربية وشمال إفريقيا غرباً. ويتكلم التركمان اللغة التركمانية، وهي فرع من مجموعة اللغات التركية.

والأريون Aryans تسمية أطلقت في القرن التاسع عشر على مجموعة من الشعوب الناطقة باللغات الهندية-الأوربية، اعتماداً على وجود قرابة بين تلك اللغات. ولكن المصطلح «آري Aryan» يستخدم اليوم للدلالة خاصة على الفرع الشرقي، أي الهندي-الإيراني من أسرة اللغات الهندية-الأوربية، وبالتالي فهو مصطلح لغوي بالدرجة الأولى، ولا يتضمن بالضرورة خصائص إثنية أو عرقية أو ثقافية أو قومية محددة. ويعود أصل هذه الكلمة إلى اللفظة السنسكريتية arya التي تعني «النبلاء»، وقد سمت بها القبائل الآرية التي غزت شمالي الهند لتمييز نفسها من السكان المحليين الفيديين، الداكني البشرة، الذين أخضعتهم لسيطرتها إبان الألف الثاني ق.م.

ربط بعض المؤرخين تعبير التركمان بالسلاجقة منذ زحفهم إلى سيستان سنة 428هـ/1026م، مع إن بعضهم توجه غرباً قبل الحملات السلجوقية وآخرون بعد ذلك. واستخدم تعبير التركمان مرادفاً للغز، ويبدو إن تعبير «التركمان» أخذ بالانتشار مع حملات السلاجقة الأوائل واستخدم بعد ذلك للدلالة على جميع قبائل الغز سواء منهم من كان من السلاجقة أو من كان من غيرهم.

ويرى آخرون إن التركمان هم الغز المسلمون فقط وإن الكلمة اشتقت من دمج كلمتي «ترك» و«إيمان».

وقيل إن التاجيك عندما تدفقت جموع الغز إلى ما وراء النهر أطلقوا عليهم لفظ التركمان أي «شبيهي الترك».

وقيل أيضاً إن «ترك» اسم علم يستخدمه البدو الرحّل عند الحديث عن أنفسهم وإن «مان» لاحق يفيد النوع.

كما قيل إن «مان» بالتركية تعني البأس والشجاعة أو تعني التعظيم وعليه «ترك مان» تعني «التركي الشجاع».

وورد أول وصول للقبائل التركمانية إلى بلاد الشام ونزولهم في دمشق وأطرافها، في كتاب معجم البلدان للبلاذري، المتوفى سنة 279هـ/892م، حيث قال: «فنزلت القوافل بدمشق وهي لقوم من التركمان يقال لهم بنو المراق، كانوا يسكنون دمشق سنة 105هـ/723م».

وفي كتاب البرق الشامي للأصفهاني (519-597هـ/1125-1201م) إشارة إلى أوضاع التركمان وبطولاتهم وفتوحاتهم وجهادهم ورباطهم في ثغور بلاد الشام في حلب وحماة وإعزاز واللاذقية ودمشق، وأحوال قبائلهم وجيوشهم وأمرائهم أمثال: الأمير ياروق، المتوفى سنة 564هـ/1168م، الذي بنى محلة الياروقية الكبيرة في مدينة حلب، وكان كذلك من الأمراء والسلطين التركمان: شجرة الدر، وعلاء الدين ايبك، وسيف الدين قطز، والظاهر بيبرس، ونور الدين الزنكي.

وجاء في رحلة ابن بطوطة (703-779هـ/1304-1377م): «ثم سافرت إلى الجبل الأقرع وهو أعلى جبل بالشام وأول ما يظهر منها إلى البحر وسكانه التركمان وفيه العيون والأنهار».

وقال ابن شدّاد (539-632هـ/1145-1234م) في الروضتين: «ومن صائب رأي الشهيد آتابك الزنكي وجيده إنه سير طائفة من التركمان الإيوانية مع الأمير الياروق إلى الشام وأسكنهم بولاية حلب وأمرهم بجهاد الفرنج وملّكهم كل ما استنقذوه وحرروه من البلاد التي للفرنج وجعله ملكا لهم فكانوا يغادون الفرنج بالقتال ويرأصونهم وأخذوا كثيرا من السواد وسدوا

ذلك الثغر العظيم ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة 600 للهجرة/ 1203 للميلاد».

وذكر أيضاً في نفس المصدر: «جمع القائد أسد الدين إليه العدد الكثير من شجعان التركمان وقاتلوا المشركين ووصلوا إلى بعلبك في العسكر من مقدمي التركمان وأبطالهم للجهاد وهم في العدد الكثير والحجم الغفير واجتمعوا بنور الدين وتقررت الحال على قصد بلاد المشركين لتدوينها والابتداء بالنزول على بانياس وقدم نور الدين دمشق لإخراج آلات الحرب وتجهيزها».

ويفصل ابن خلكان (608-681هـ/ 1211-1282م) في وفيات الأعيان أخبار ياروق التركماني فيقول: «هو ياروق بن أرسلان التركماني كان مقدما جليل القدر في قومه وإليه تنسب الطائفة الياروقية من التركمان وكان عظيم الخلقة هائل المنظر، سكن بظاهر حلب من جهتها القبليّة وبنى شاطئ قويق فوق تل مرتفع، وبنى هو وأهله وأتباعه أبنية كثيرة مرتفعة وعمائر متسعة عرفت بالياروقية وهي شبه القرية وسكنها هو ومن معه، وبنى سوق الياروقية، وتوفي في محرم سنة 564 للهجرة/ 1168 للميلاد. وقويق نهر صغير بظاهر حلب يجري في الشتاء والربيع وينقطع في الصيف».

ويقول ابن العماد (1032-1089هـ/ 1623-1678م) في شذرات الذهب: «كان جقمق من أبناء التركمان أصبح دويدارا ثانيا عند الملك المؤيد قبل سلطنته، وكان يتكلم بالعربية، لا يشك فيه جالساً إنّه من أولاد الأمراء، ثم استقر دويدارا كبيراً إلى أن قرره الملك المؤيد في نيابة الشام فبنى السوق وأوقفه على المدرسة التي بناها قرب الأموي».

وبعد هذه المقدمة عن التركمان بشكل عام وقدم وصولهم وتوطنهم بلاد الشام، سنوسع البحث في هذا الإطار الجيوسياسي على وجه الخصوص.

ففي زمن تراجع السلطة العباسية، ارتبطت دمشق بالدولة الطولونية قبل أن تخضع للخلافة الفاطمية، ثم بسط السلاجقة سلطتهم عليها فحكمها الأتابكة بشكل شبه مستقل.

قام معين الدين أنر الفرنجة، وجاء من بعده نور الدين محمود زنكي فوحد المشرق ما هياً الظروف لخلفه صلاح الدين الأيوبي فحرر القدس. وبعد وفاة صلاح الدين 588هـ/1193م، تصدعت الدولة الأيوبية فاستولى المغول على دمشق، فتصدى لهم الجيش المملوكي بقيادة الأميرين التركمانين سيف الدين قطز والظاهر بيبرس وقهرهم في معركة عين جالوت جنوب الشام ووحد المماليك، من جديد، بلاد الشام مع مصر تحت حكمهم إلى أن دخلها الجيش العثماني بقيادة السلطان سليم الأول بعد معركة مرج دابق سنة 1024هـ/1615م.

قام العثمانيون بإعادة توزيع القرى، التي دمرتها الحروب والاضطرابات الاجتماعية، لإعمارها واستثمار أراضيها ليقوموا بجني الرسوم التي كانت من أهم مواردهم المالية. فأخذوا بتمليك القرى لمن يطلب تعهدها، مع اعتبار بعض الأهداف الاستراتيجية، فنرى مثلاً إن معظم القرى التركمانية شيدت في القرن السابع عشر جوار طريق الحج لتقوم بمهام حماية قافلة الحج من هجمات اللصوص وقطاع الطرق وغارات البدو على قوافل الحجيج والتجار.

وقد رأينا إن نزول التركمان شرق المتوسط يعود للقرن السابع الميلادي فهو يسبق الفتح العثماني بمئات السنين، فقبل هذا الفتح كان تركمان حلب ومن جاورهم يخرجون للرعي صيفاً شرقي هضاب الأناضول، بينما كانوا يقضون الشتاء متنقلين في انحاء بلاد الشام. وتركمان «الشعب الاغبر» كانوا يمضون الصيف في ديار بكر وأرضروم عند منابع الفرات وينزلون لقضاء الشتاء في

البادية الممتدة من جنوب ماردين وحتى دير الزور. وتركمان سللورية كانوا يقضون الصيف في جبال لبنان وينزلون لقضاء الشتاء في واحة تدمر.

وقد اندمج التركمان في الحياة العامة للدولة العربية الإسلامية بعد اعتناقهم الإسلام ديناً لهم، وانخرط عدد كبير منهم في جيش الدولة، وهو الأمر الذي مهّد لهم فيما بعد، وخاصة في العهد العباسي لأن يلعبوا دوراً مهماً في مراحل سياسية مختلفة. كما تبوّأت شخصيات منهم مناصب رفيعة في الدولة، وبرز الكثير منهم في قائمة النخبة العليا، سبق الإشارة إلى بعضهم، وسندكر في هذا السياق آخرين منهم.

فقد شارك التركمان المعروفون بفروسيتهم وشجاعتهم في الدفاع عن بلاد الشام أثناء الحروب الصليبية بدءاً بحكم السلاجقة، فالأتايبكية الزنكية، فالأيوبية، فالمملوكية التركمانية، فالمملوكية الجركسية. فالأمير التركماني مظفر الدين كوجك كان من أبرز قادة جيش صلاح الدين وزوج شقيقته، وهو أمير دولة الأتابكة في أربيل، وقد شهد معركة حطين. وكذلك انضم إلى جيش صلاح الدين بعد ذلك القائد التركماني يوسف زين الدين أمير أتابكة الموصل. وكان الظاهر بيبرس، القائد المملوكي التركماني، آخر من حرر القدس.

وللتركمان مآثر كبيرة في تحرير مدينة إغزاز من الفرنج، فقد قال ابن شدّاد في الروضتين: «ورد الخبر في الخامس من المحرم من ناحية حلب بأن عسكر التركمان ظفر بابن جوسلين صاحب إغزاز وأصحابه ووقعوا في قبضة الاسر في قلعة حلب فسر هذا الفتح كافة الناس». كان ذلك في عهد السلطان مسعود بن قليج أصلان السلجوقي صاحب قونية.

امتحن التركمان الرعي في البداية، ومع قيام الدولة العثمانية بتوزيع الأراضي على من يرغب استثمارها تحول الكثير منهم إلى الزراعة. واحترف أهل المدن منهم الأعمال الحرة والوظائف العامة.

إن اندماج التركمان في المجتمع المحلي كان كاملاً، ولم يتأثر ذلك بخروج العثمانيين بعد الحرب العالمية الأولى 1914-1918م، فقد استمر التركمان في مواطنهم التي نزلوها قبل دخول العثمانيين بقرون مؤكدين حقيقة انتمائهم الوطني. وأكدوا ذلك بمشاركتهم في النضال الوطني ضد الاستعمار الفرنسي، فقد لعب التركمان من أبناء قرى حلب دوراً مشرفاً في سبيل الاستقلال الوطني، ولهم مآثر مشهورة لدى أهالي منبج لدى موقعة شيخ يحيى. وفي الجولان شاركوا في المقاومة الشعبية أثناء حرب 1967 مع الصهاينة.

يتوزع التركمان على كافة مدن وقرى إقليم بلاد الشام بشكل متجانس، ورغم الأصل الواحد، يميل العرف عند أهل الشام إلى إطلاق ألفاظ «تركمان وتركمانى» على قاطني الريف وكلمة «أتراك وترك وتركي» على من سكن المدن منهم، أما الأتراك العثمانيون، فلم يتسموا بالترك أو بالتركمان، بل أطلقوا على أنفسهم لفظ «العثمانيين» وكذلك أطلق عليهم أهل الشام، وإن كانت هذه المسميات قد اندثرت نتيجة الاندماج الاجتماعي الكامل رغم السعي المستمر لإحيائها من قبل أصحاب «فرق تسد».

وبحكم موقعه الجغرافي وعمقه التاريخي، فإن مجتمع إقليم بلاد الشام متعدد الأصول والقوميات والمعتقدات جمعهم إرادة الانتماء الوطني، وكلها أصيلة في البلد عريقة راسخة القدم وكاملة الاندماج استقرت فيه منذ آلاف السنين تباعاً في حقب وظروف تاريخية مختلفة، وليس فيها من هو دخيل. فخلال آلاف السنين نشأت وبادت على أراضي بلاد الشام عشرات الحضارات والدول، وهي

تقع ولم تزل على حدود الثقافات الشرقية والغربية ونشأت وتطورت فيها الأديان السماوية الموحدة قبل انتشارها العالمي لتكون الأساس العميق لمختلف الثقافات في العالم.

وأهم هذه المكونات تعداداً: العرب، والتركمان، والكرد، ثم الآشوريون، والأرمن، والشركس، والداغستان، والشيشان، والسريان، والألبان أو الارناؤط والبوسنيين أو البوشناق.

والانصهار الاجتماعي كامل بين كل هذه المكونات دون أي تمييز، ويبدو ذلك على سبيل المثال في مظاهر اجتماعية مختلفة كالزواج والمصاهرة والتأثير الثقافي المتبادل كما يظهر في: المفردات اللغوية العامية، والتراث الفني الشعبي (الفولكلور)، والمأكولات والحلويات الشامية.

وساعد على ذلك عوامل أخرى دينية وسياسية، وأصبح الانتماء الوطني طاعياً ما استبعد عن ذهن المواطن السوري كل انتماء مغاير سواء كان ذلك في العرق أو المعتقد.

وعند قيام سورية الحديثة بعد الحرب العالمية الأولى أسس المؤتمر السوري العام، المؤلف من ممثلي كافة المناطق السورية بغض النظر عن أصولهم العرقية وعن معتقداتهم: فقد كان أول رئيس له محمد فوزي باشا العظم ونائبه عبد الرحمن باشا اليوسف ثم تولى رئاسته هاشم بك الأتاسي، وهذه الشخصيات التي لا يتحفظ أي سوري على زعامتها وصفتها التمثيلية الوطنية تنتمي لعائلات ذات أصول عربية وكردية وتركمانية على الترتيب. واعتمد هذا المؤتمر بالإجماع اللغة العربية لغة رسمية للبلاد، كونها اللغة المشتركة بين الجميع وليس بهدف الهيمنة الثقافية وإلغاء الآخر كما يروج البعض.

يعتق التركمان السوريون الدين الإسلامي، ويتميزون بالتدين، ويغلبون انتماءهم الديني على انتمائهم العرقي، وهم شديدو الالتصاق بالأرض التي يعيشون عليها ويعتبرونها وطنهم ويدافعون عنها ببسالة، ومن طباعهم حب الاندماج في الحياة العامة وساعدهم في ذلك شفائيتهم وانفتاحهم وتفاعلهم مع المجتمعات التي يعيشون فيها. ومن صفاتهم احترام الآخر، وحب الضيافة. فالتركمان ينشئ أولاده منذ الصغر على: حب الوطن، واحترام الكبير، والوفاء للصديق، وعدم المهابة من العدو.

وإضافة إلى الأمراء وقادة الجند من أصول تركمانية المذكورين قبلاً فقد برز منهم عبر التاريخ شخصيات ذائعة الصيت في مجالات كثيرة أخرى ككبار الشعراء والأطباء والكتاب والمفكرين والسياسيين ورجال الدولة أمثال: البخاري، ومسلم، وابن النفيس، والرازي، والفارابي وغيرهم. ومن المعاصرين وزير الدفاع السوري الأسبق الشهيد يوسف العظمة قائد معركة ميسلون التي تصدت لزحف جيش الاستعمار الفرنسي على دمشق، ورائد المسرح السوري أبو خليل القباني، والشاعر الكبير نزار قباني.

وعلى ضوء ما سبق، يبدو من المفارقة ما يفعله بعض المعاصرين، بحسن أو سوء نية، من محاولة وضع إحصاءات، واقعية أو افتراضية، لتقسيم أهل سورية وفق أصولهم العرقية البعيدة، فمن شبه المستحيل إجراء هذا التمييز اليوم على أرض الواقع، إلا ما كان من احتفاظ بعض العائلات الشامية بأسماء تشير إلى ذلك ليس إلا، كالأيوبي أو الكردي أو التركماني أو الدياربركلي أو الروماني أو العجمي أو الأرناؤوطي أو المغربي وغيرها، مع ما نجد من كون أبناء هذه العائلات لهم أجداد وجدّات وأمّهات وأزواج وزوجات وأنسباء وأسباط وأحوال ومصاهرات من مكونات سورية ذات أصول عرقية مختلفة.

ومع قناعتنا الراسخة بذلك نذكر ما قدّمته بعض هذه الإحصاءات السكانية الحديثة التي تقدر عدد السوريين الذين يحتفظون بذاكرتهم إنهم من أصل تركماني بحوالي مليون ونصف من أصل عدد سكان سورية المعاصرة البالغ خمسة وعشرين مليوناً، أي 6% من مجموع السكان، لا يحملون أي خاصية تميّزهم عن السوريين من أصول بعيدة أخرى سوى ما ذكر.

الخاتمة

وخلاصة القول، ظهر أوائل التركمان على أراضي سورية المعاصرة في القرن السابع الميلادي. وكانت الموجة التالية من السكان التركمان في القرن الحادي عشر الميلادي مع الأتراك السلجوقيين حيث اتجه اتحاد القبائل التركية «الغز» القوي من آسيا الوسطى إلى إيران ومن ثم إلى الشرق الأوسط. وخلال فترة قصيرة أقامت دولة «السلاجقة العظام» التي ضمت أراضي آسيا الوسطى وإيران وما بين النهرين وقسم كبير من آسيا الصغرى وقسم من ما وراء القوقاز. وأدت الحرب إلى نزوح عدد كبير من القبائل التركمانية الرحّل من آسيا الوسطى إلى شرق المتوسط.

واحتاجت الإمبراطورية السلجوقية لجهاز جديد لإدارة الدولة، ولنظام إدارة مدنية وعسكرية. وحصلت الشخصيات العسكرية البارزة منهم على مساحات شاسعة من الأراضي على شكل إقطاعات. وفي نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر بدأت في الدولة السلجوقية صراعات محلية وخلافات، ورافقت هذه الاضطرابات سقوط الدولة ونشوء إمارات مستقلة، ثم توحد المشرق بقيام الدولة الزنكية ثم الأيوبية ثم المملوكية. وفي عام 1516م تفوق العثمانيون على المماليك في معركة مرج دابق وأقاموا على هذه الأراضي لمدة 400 عام. وكان السكان المحليون، لقرون طويلة، تحت التأثير الشديد للثقافة التركية التركمانية والعثمانية. انتشر التركمان في مختلف أنحاء العالم، ووزرعا بذور ثقافتهم وأصبحوا شخصيات معروفة في الثقافة والسياسة.

إنّ الشعب السوري تجمعته، على اختلاف أصوله ومعتقداته، روابط الوطن وإرادة الانتماء إليه، وإنّ التركمان كغيرهم من مكونات هذا الشعب، أو الأمة بتعبير مؤرخينا، أو القوم بتعبير الفلاسفة المعصارين كرينان المذكور سابقاً، جزء لا يتجزأ من النسيج الاجتماعي لسورية وشعبها العريق ولن تتنازل عن ذرة من تراب هذا الوطن وعلى دوام التأهب والاستعداد للدفاع عنه في الملهمات والمحن والوفاء الدائم إليه يحافظون على وحدته الوطنية وسيادته وحرية وكرامته، ويساهمون في بنائه وتطوره ورفاهيته، كعهدهم عبر التاريخ القديم والحديث.

إن ما ذكر عن المجتمع في سورية ينطبق بخطوطه العريضة على المجتمعات الإسلامية الأخرى، فتحسين الواقع والانتقال به نحو الأفضل يتطلب أولاً القبول به وتدعيمه لا تخريبه وتفتيته. فالمصالحة مع أنفسنا ومع مجتمعاتنا تتطلب الاجتماع على ما نشترك به جميعاً وهو إرادة الانتماء الوطني وإعمار الوطن وتنمية المجتمع واحترام المصالح المشتركة والدفاع عنها، وكل هذا لا يتعارض مع ثقافتنا ومعتقداتنا. إن التعاون بين مكونات المجتمع للقيام بأعبائه لا يقوم على هيمنة مكون على المكونات الأخرى ولكن يقوم على التعارف واحترام الخصوصية ومشاركة الجميع في الشأن العام ومراعاة المصلحة العامة.